التقييم : خلل و تصحيح

عبد الله بن سليمان العبدالله (ذو المعالي)

<TD< tr/>

جميلٌ أن يُعملَ الإنسان عقله و فكره مقيِّماً أمراً مما يسوغ له أن يدخل في التقييم له ، و هذا نوع من إعمال الفكر في اختيار و تحقيق ما يناسبه .

لكن المؤسف أن يكون هذا التقييم مطلقاً لا ضوابط له ، أو يكون اتكاؤه على ضوابط وهمية خرافية لا تنتج إلا خللاًكبيراً ، و خرقاً واسعاً .

فلعظم هذا الأمر تعيَّن الكتب في هذا إيضاحاً و بياناً للخلل الواقع و الحاصل في التقييم عند كثير من طلاب العلم .

و قبل البدء بذكر الخلل أريد أن أبيِّن أن التقييم إنما هو : تقييم بعضُ طلاب العلم الشيوخَ من أهل العلم ، و الدين .

فمن الخلل :

أولاً: تقييم العالم بكثرة دروسه و لقاءاته العلمية .

و هذا سائد و منتشر عند الأغلبية من طلاب العلم ، فما أن يروا عالماً قد ربت دروسه و كثرت إلا و تكالبت عليه ألقاب التعظيم ، و شارات : العلامة ، الفذ ، الحافظ ، ... إلخ .

و يكون هذا التقييم في بعض الأحايين في مقابل عالمٍ آخر مثله في : السن ، العلم ، المكانة ، الشيوخ.

و هذا خلل بيِّن لكل ذي عينين ، و واضح لمن أنار الله بصيرته .

فلم يكن معهوداً عند السالكين مجال العلم أن كثرة دروس الرجل دالة على

قوة في العلمية تؤهله أن يفضل على غيره ، أو أن يُلزم فلا يُغادر درسه .

و ليست قلتها دالة على قلة علم الرجل ، و ضيق مداركه العلمية .

و لو نظرنا بهذا الاعتبار لكنا مُسْقطين لجملة من أهل العلم _ الذين هم أهله _ في قديم الزمان و حديثه ، و آخذين لجملة من المتصفين بالعلم _ و لم يدركوا حال الذين قبلهم _ كذلك .

نعم ؛ الأصل أن كثرة الدروس فيها دلالة على كثرة علم الشيخ و لكنها دلالة ظنيَّة لا يقين فيها .

و بيان كونها ظنية ليست باليقينية أن أهل العلم فيهم تفاوت في أحوالهم :

فمنهم من هو كثير الأشغال ، فلا يكاد يجد له وقتاً يفرغ فيه للتعليم أصلاً، أو الزيادة من مجالس التعليم .

و منهم من لم يفتح الله _ تعالى _ له في التعليم لكن فتح عليه في مجالات أُخر .

و منهم من لم يُعرف ، و منهم من لم يُعطَ أسلوباً في التعليم مناسباً لحال طلاب زمانه .

إلى غير ذلك من الأحوال التي لا يكاد يخلو منها أحد من أهل العلم ممن هذا شأنه .

و إذا نظرنا أيضاً إلى العالم المكثر من الدروس و مجالس التعليم نجد أن الكتب التي يقوم بشرحها و تدريسها كلها ذات ترابط بينها فهو إما أن يشرح في : الفقه ، أو الحديث ، أو الاعتقاد ، أو المصطلح ، ... إلخ ؛ فهذه كلها علوم كتبها إنما هي إعادة و تكرار ، فليس فيها دليل على علمية العالم ، أو قوته .

ثانياً : التقييم بكثرة الكتب .

يعمد كثير من الناس إلى تقييم العالم و إيضاح رتبته العلمية من خلال ما له من الكتب و التصانيف ، و هذه حجة الجاهل بأحوال أهل العلم ، و مسالك التصنيف .

لو كان كلٌّ من صنف و ألف عالماً لما كان للقولة الشهيرة (من صنف فقد استهدف) و لا للأخرى (من ألف فقد عرض عقله على الناس) أي معنى و مكانة ؛ إذ لو كان لا يؤلف إلا العالم لكان تأليفه عرض لكمال عقله ، و تمام علمه و نضوجه ، لا ليحظى بتقييم ممن هو بحاجة إلى تقييم .

فلو أبصرنا حال المكتبات في هذه الآونة لوجدنا الأكثرية من المؤلفين إنما هم ممن ليسوا على حال متقدمة في العلم .

بعض أهل العلم لا يرى نفعاً _ له _ في التأليف و التصنيف فلا حاجة له في أن يشغل نفسه في مثل ذلك .

و منهم من لم يرزقه الله جلداً على التأليف و الجلوس له ؛ إذ التأليف محتاج إلى تفرغ للبحث و التنقيب في بطون الكتب .

و منهم من يكتفي في التأليف في الأمور التي لم تطرق فيؤلف فيها .

و غالب من ألف حاله بعكس حال من لم يؤلف .

بل أكثر التآليف في هذه الأزمنة مفرغة من الأشرطة السمعية فليست تأليفاً ، و لو صحَّ أن تسمى تأليفاً لكان كل بليغ و متفيهق يتكلم في أشرطة ثم تفرغ و تنشر كتباً مرقوم على طرتها (تأليف) .

ثالثاً :التقييم بكبر السن .

ما أظن زماناً عُهد فيه تقدم السن دليلاًعلى العلم مثل زماننا هذا .

بل لم يعرف للعلم وقتاً و لا عمراً ؛ و إنما هو مُنالٌ بالجد ، و السلوك الأمثل

في التحصيل .

لا شك أن للعمر دوراً في رسوخ القدم في العلم و التمكن فيه ، و قوة التحرير و التدقيق في المسائل ، لكن ليس هو مقياساً و ميزاناً ثابتاً لتقدير علم العالم : كماً و كيفية .

و التأريخ حاكم على هذا الميزان _ الذي تعلق به من تعلق لتقييم بعض أهل العلم على بعض _ بالإبطال و النقض ، و من قرأ السير درى الخبر .

رابعاً :التقييم بكثرة الطلاب .

إن الاحتجاج و الاستدلال على مدى علمية العالم و قوته بكثرة الطلاب أو قلتهم من الأمور التي لا يلتفت إليها إلا جهلة المنتسبين إلى طلبة العلم و لمّا يدركوا .

إيضاح ذلك أن الطلاب يكثرون عند الشيخ لأسباب ، أجملها في :

(1) حسن أسلوب الشيخ و براعته في الشرح .

(2) ميول بعض الطلاب إلى الشيخ و محبتهم له _ و الحب يعمي و يصم _ .

(3) مكانة الشيخ : العلمية ، المنصبية ، النسبية ، ... إلخ .

(4) التخصص ، أو التفرد بنوع من العلم .

فلا عبرة بعد هذا بالتقييم بكثرة الطلاب .

و ليُعلم أن كثرة الطلاب عند الشيخ دليل _ في الغالب _ على خلل في التأصيل في الطلب .

خامساً :التقييم من خلال : الحب و البغض .

فبعض طلاب العلم يفضا فلانا على فلان لمحبته له و بغضه للثاني ، و قد يكون الثاني أكثر علماً و قدراً ، و هذا ظلم بيِّن ظاهر .

و هذا مما لا يحتاج إلى بيان و لا إيضاح فتوضيح الواضحات من الفاضحات .

هذه بعض الخلل الموجود في صفوف طلاب العلم في هذه الأزمنة _ و الله المستعان _ .

و ليعلم المشتغل بالتقييم أنه مقبل على ربه _ تعالى _ و محاسبه على كل صغيرة و كبيرة فلا يعلقن في ذمته شيئاً من مثل هذه الأمور ، و ليتق الله _ تعالى _ فإن لحوم العلماء مسمومة ، و عادة الله في منتهكم معلومة .

سادساً : التقييم من خلال ما يريده الشباب من الكلام في بعض القضايا الساخنة ، فنرى كثيراً من الناس كبَّرَ فلاناً (طالب العلم) لكونه قد أدلى بدلوه في بعض القضايا الحالَّة ، أو أفتى بما تميل إليه رغبات الشباب _ و لا يعني ذلك أنه يفتي على رغباتهم ؛ لا ، و لكن يفتي بما يراه حقاً فيتعلقون به _ و أما من خالف ما يريدونه فذاك فيه و فيه ، و من الصنف الفلاني .

و ليحذر من الحجة المهلكة _ التي قذفها الشيطان في قلوب بعض طلاب العلم _ : الكلام في مثل هذه الأمور إنما هو بيان حالٍ ، أو غيبة في ذات الله _ تعالى _ .

تصحيح التقييم

إن التقييم أمرٌ ملحٌ في جانب حياة الإنسان : علماً ، و نهجاً ، و سلوكاً ...

فأقول _ و من ربي استمد العون _ :

إن تصحيح خلل التقييم عائدٌ إلى أمورٍ هن أُسس و أصول :

الأول : التقييم الديني :

و أعني به : تقييم العالم من جهة دينه .

و هذا له فرعان :

1- التزامه بالدين ظاهراً و باطناً .

فإن سلوك درب الاستقامة أساس في التقييم متين ، و به التعديل و التجريح .

و متى تخلَّف فردٌ من أفراد الاستقامة _ التي شأنها الضرورة _ عن رجل من الناس كان ذلك ناقصاً من تعديله .

2- الحمية للدين .

فإذا ما رأينا الرجل (العالم) ذا حمية على دينه حين انتهاك حرماته ، و ذا قومة قوية في وجه من تبنى نشر الرذائل و تمكين أهل الفسق و الانحراف استحق بذلك أن يكون ممن له وزنه بين الناس معدَّلاً موثقاً .

و لا يستحق التقييم من نِيْلَ من دينه و انتهكت حرماته و لم تقم في قلبه قائمة الغيرة على الدين .

الثاني : التقييم العلمي :

المعنيُّ بالتقييم العلمي هو : أن يكون تقييم العالم من حيث كونه عالماً بدين الله تعالى ، سالكاً في التعليم درباً مؤصَّلاً.

و أطمح من ذلك : أن يكون تقييم كل ذي علم بما لديه من علم ، فلا يُتَجاوَز به إلى فوق مرتبته .

و عند إمعان النظر في أحوال الطلاب مع الشيوخ نرى ذلك جلياً في تخلف التقييم الأصيل لقدر الشيخ بعلمه ، و نرى _ أيضاً _ الحطَّ على من نبغ في العلم قدراً كبيراً .

و التحكيم و الوزن راجع إلى ما في النفوس من سخائم ، و ما في القلوب من تقديس .

فالتقييم للعالم يكون من جهة ما ناله من العلم : المؤصَّل المسلوك فيه طريق الفقهاء و الأئمة المعروفين .

و _ أيضاً _ من جهة كونه باذلاًالعلمَ للطلاب على وَفْقِ أصول التعليم المقررة في كتب التربية و التعليم .

ثالثاً : التقييم الإبلاغي :

و أعني به : تقييم الشيخ من جهة كونه ممن أعطى دينه شيئاً من جهده الدعوي .

فمن الغلط : أن يكون تقييم شيخٍ وتفضيله وهو خِلْوٌ من أي همٍّ للتبليغ دين الله تعالى .

و من الغلط _ أيضاً _ هدرُ قَدْرِ شيخ بذل مهجته و نفسه و وقته لتبيلغ دين الله تعالى .

تنبيه : أشير إلى أمورٍ ذات بالٍ :

الأول : أن بعض العلماء العاملين في تبليغ دين الله قد يكونون ممن قارفوا شيئاً من المخالفات _ فيما يظنها المقيِّمُ أنها مخالفة _ ، فلا يعني ذلك أن يكون حاظياً بهدم قدره عند المقيِّم .

الثاني : أن الاعتبار بالتبليغ في القدر الواجب من الدعوة إلى الدين و الحق .

فليس مراداً لي _ البتة _ أن يكون همه التبليغ و الدعوة بمعنى : أن يكون عاكفاً ليل نهار ، لا و لكن مرادي أن ذا بذل مناسب لقدره و مقامه العلمي .

الثالث : عند التقييم يلاحظ أمرٌ مهم ؛ و هو : اعتبار المسائل الخلافية في الشريعة ، فلا تأتي إلى رجل عالمٍ يأخذ من لحيته فتفسقه و تحطُ من شأنه

لأنه يأخذ من لحيته .

فهذا سوء فهم ، و ليس تقييماً علمياً ؛ إذ ما قام هو بأخذ لحيته إلا لما صح عنده جوازها ، كما أن من لم يأخذ ما ترك الأخذ إلا لما صح عنده عدم جوازه .

فليست المسائل كلها مُجْمَعٌ عليها .

و الله الموفق

الخميس 19/2/1423هـ